مجلة روافد للبحوث و الدراسات / مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة غرداية / المجلد 08/العدد 01 (2023 م):27-45
E: 2588-1787 / P: 2543 - 3563
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/806

البنية الاجتماعية والاقتصادية لموريتانيا قبل الاستعمار الفرنسي

Mauritania's pre-colonial social and economic structure

د. جمال غدور[1]

[1] جامعة نواكشوط ، موريتانيا ، gadour222277@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 15/ 01/ 2023؛ تاريخ القبول:2023/05/25؛ تاريخ النشر:2023/06/25

ملخص:

يسعى هذا العمل إلى رسم خريطة اجتماعية وإقتصادية تقريبية للمجتمع الموريتاني قبل الاستعمار، واستجلاء مفاصلها ومراكز تأثيرها، ومنظومة العلاقات التي تربطها.

والحقيقة أن البنية الاجتماعية في موريتانيا قبل الاستعمار كانت على شكل هرم يتربع على قمته مجموعة حسان (اصحاب السلطة السياسية والعسكرية) والزوايا (اصحاب السلطة الروحية) وفي قاعدة ذلك الهرم تأتي الفئات التابعة (الفنانون والصناع التقليديون والأرقاء السابقون).

وقد حولنا من خلال الدراسة تبع وظائف هذه المجموعات كلها داخل المجتمع وأدوار كل طبقة إجتماعية وطبيعة تكوينها وأعدادها من خلال ما توفره الإحصاءات وأنشطتها الإقتصادية التي تتعاطاها سواء في مجال الرعي والزراعة أو مجال التجارة الخارجية مع الأوروبيين على السواحل.

كلمات دالة: الطبقات الإجتماعية، موريتانيا، حسان، والزوايا، المستعمر الفرنسي.

Summary:

This work seeks to draw a rough social and economic map of Mauritanian society prior to colonialism, to explore its joints and impact centres, and its system of relations.

In fact, Mauritania's pre-colonial social structure was in the form of a pyramid at the top of which the Hassan Group (holders of political and military power) and AL-Zawaya (holders of spiritual and scientific power) and at the base of that pyramid came subordinate groups (Artists, Handicraftsmen and former Slaves.(

المؤلف المرسل:جمال غدور gadour222277@yahoo.com

Through the study, we have tried to track the functions of all these groups within society and the roles of each social class, the nature of their composition, numbers and economic activities that they use both in pastoralism and agriculture and in foreign trade with Europeans on the coasts through statistics.

Through the study, we have followed the functions of all these groups within society and the roles of each social class and the nature of their composition and enumeration through statistics and their economic activities in the fields of pastoralism, agriculture and foreign trade with Europeans on the coasts.

Key words: Social classes, Mauritania, Hassan, and Al-Zawaya, French colonizer.

المقدمة:

كان المجتمع المحلي قبل الاستعمار يتكون من مجموعة من القبائل والعشائر على شكل هرم يتربع على قمته استقراطيتا (حسان، والزوايا)، في حين يمثل قاعدة الهرم المجموعات التابعة، ويلف الغموض طبيعة هذه التشكلية الثلاثية وأسباب وتاريخ نشأتها، فالمدرسة الأوروبية تعتبرها وليدة حرب "شربيه" في النصف الثاني من القرن السابع عشر، لكننا نستبعد هذا الرأي لاعتبار بسيط هو أن حرب "شربيه" دارت بين مجموعة حسان من جهة والزوايا من جهة أخرى، بسبب "لحمي" رفض دفع الزكاة للزوايا واحتمى بحسان، إذن فهذا التقسيم كان قبل هذه الحادثة.

في حين تذهب التقاليد العامة المحلية إلى القول بأن هذا التقسيم يعود إلى الفترة المرابطية عندما قسم أبو بكر بن عمر (ت 479هـ 1087م) جيشه إلى ثلاث طوائف، تطلع إحداها بنشر الإسلام بحد السيف (حسان) وتقوم الثانية بنشر العلم (الزوايا) في حين تتولى الأخيرة مهمة القيام على الأموال وتموين الطائفتين المتقدمتين (الأتباع) .

ومع إقرارنا بما أحدثته الحركة المرابطية من أدوار سياسية وإديولوجية في المجتمع الموريتاني، إلا أن هذا المنحى السابق لا يأخذ في الحسبان ما تمتاز به البنية الاجتماعية من ثبات، وخضوعها لأسس الحياة المادية والتفاعلات الاجتماعية أكثر من خضوعها للحوادث العرضية والتصرفات الفردية.

غير أننا هنا لسنا في موقف الفصل في أصول التقسيم الثلاثي للمجتمع وتجليات ذلك، لأنه لا يترتب عليه كبير فائدة لموضوعنا، وعليه فإننا سنركز على طبيعة المجتمع لكي نفهم وضعيته قبل الاحتلال الفرنسي وتبيان عناصره الجوهرية التي تشكل في مجملها تركيبته العامة.

لقد اعتمدنا في إعداد هذا البحث على المنهج الوصفي وفي بعض الأحيان على المنهج المقارن خصوصا عند الحديث عن الطبقات الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية لمجتمع محل الدراسة.

وقد تمحورت الدراسة حول إشكالية حاولت الإجابة عليها في ثنايا هذا العمل، وهي أن المستعمر الفرنسي عندما جاء إلى موريتانيا وجد بها منظومة إجتماعية داخلها طبقات إجتماعية أقرب إلى التخصصية في العمل والوظائف وفي المقابل أيضا وجد لدى القوم إقتصاد الكفاف المبني على ما تنتجه الطبيعة دون الحاجة إلى الآخر (الاجنبي)، فهل فعلا كانت المنظومة الإجتماعية والإقتصادية للسكان قبل الاستعمار بدرجة من التماسك الاجتماعي والاقتصادي يمكنها من مواجهة تأثيرات الاستعمار الفرنسي؟.

ونهدف من خلال هذا المقال إلى بناء تصور عن البنيات الإجتماعية والإقتصادية للمجتمع الموريتاني قبل الاستعمار الفرنسي وكيفية العلاقات التي ربطت المجموعات

المحلية ببعضها وطبيعة تدبير القوم لمعاشهم من خلال الأنشطة الاقتصادية التي كانوا يتعاطونها خلال تلك الحقبة ولعل من أهداف الدراسة أيضا دراسة المجتمع المحلي قبل الظاهرة الإستعمارية من أجل إدراك مدى التأثير الذي أحدثته السياسة الإستعمارية على مختلف بنيات المجتمع.

أولا: عناصر البنية الاجتماعية:

لا يتعلق الأمر بالحديث عن المباحث السلالية، أو القوائم الجينالوجية، ولا بإحياء درس المناقب لهذه المجموعة أو تلك، بقدر ما نود محاولة رسم خريطة اجتماعية تقريبية للمجتمع، واستجلاء مفاصلها ومراكز تأثيرها، ومنظومة العلاقات التي تربطها.

1- أصحاب قمة الهرم الاجتماعي:

احتل حسان مرتبة عليا في السلم الاجتماعي وتكرس ذلك من خلال سيطرتهم السياسية والعسكرية، بفرض الضرائب والغرامات على بعض الفئات الخرى في حين تبعهم الزوايا من خلال سيطرتهم الروحية على باقي المجموعات، وللزوايا كذلك نصيبهم من المغارم الاجتماعية وإن كانت في أغلب الأحيان تعطيها لباسا طوعيا، يخرجها من دائرة الإكرام لتصبح هدية لا مغرما ، بينما كان نصيب الفئة الباقية التبعية لإحدى الفئتين المهيمنتين (حسان، والزوايا).

1.1 حسان:

هم الفئة المسيطرة سياسيا وعسكريا اقتسموا البلاد إلى إمارات مغفرية (الترارزة، لبراكنة، أولاد يحي بن عثمان) أو متمغفرة (إدوعيش)، وكذلك المشيخات التي لم ترق في تنظيمها إلى مستوى الإمارة (أولاد امبارك).

ولا تحيل كلمة (حسان) بالضرورة إلى الانتماء إلى القبائل العربية المعقلية المنتسبة إلى حسان بن مختار بن محمد بن معقل، وإنما يتعدى المعنى الجينالوجي ليشمل الفئة التي تحتكر الحرب والفروسية وتسيطر على السلطة السياسية والعسكرية سواءا كان أصلها ينتهي إلى حسان أم إلى غيره.

وتقوم فلسفة "حسان" على احتكار عالم القوة، ووسيلتهم في ذلك تدريبهم المكثف منذ نعومة أظافرهم على حمل السلاح، حتى أنهم كانوا يتركون لكل مولود خصلة من شعر رأسه لا تحلق إلا إذا قام ببطولة تدل على فروسيته .

تأنف هذه الفئة التملك وتحتقر جمع الثروة وتكديسها، وهذا ما علق عليه أحد الرحالة الفرنسيين قائلا: "فالحساني لا يبذل ولن يبذل أي جهد من المهد إلى اللحد، باستثناء المسائل المرتبطة بطبعه كالنهب والغزو والانتقام ومعاقبة المتمردين" ويعزز ما ذهبنا إليه من ترك حسان التملك واعتمادهم في معاشهم على ما تجنيه رماحهم أو ما يفيئ عليهم من المغارم ما ذكره ابن حامد بقوله: "أما حسان فشيمتهم اقتناء السلاح، ومداومة الكفاح وامتلاك الرقاب، أموالهم سلاحهم وحصونهم ظهور خيلهم، عيشتهم الصيد وما يأخذونه من المغرم أو ما ينهبونه من الأعداء، وما عدا ذلك فهو عيب عندهم من تجارة أو حرث أو اقتناء ماشية" .

ولا تمدنا المصادر المحلية، بعدد تقريبي لهذه الفئة أو تلك، ويرجع ذلك في الأساس – حسب اعتقادنا – إلى بدائية الجهاز التنظيمي الأميري، حيث لم يقدم في أي من الإمارات الأربع على إحصاء الأفراد المنتمين إلى مجاله، وإن كانت ظاهرة الترحال خلف المراعي والكلأ تجعل هذه المهمة صعبة للغاية، إلا أن هناك إطارا قد يساعد

على ضبط هذه القضية – ولو بشكل نسبي – في حالة إقدام النظام الأميري على العملية الإحصائية وهذا الإطار هو القبيلة.

وعليه فإن أول إشادة إحصائية حصلنا عليها بإمكانها أن تعطينا فكرة عن نسبة هذه المجموعة – وإن كانت اقتصرت على إمارتي الترارزة ولبراكنة – ما ذكره الرائد كاي cqille من أن عدد السكان في الترارزة يقدرون سنة 1843 بحوالي 55.000 نسمة، تمثل القبائل الحسانية 25.000، بينها تمثل قبائل الزوايا 30.000، في حين قدر عدد حسان في إمارة البراكنة 23.000، من أصل عدد السكان البالغ 63.000 نسمة .

إن هذه الإحصاءات تقريبية، ولا يسلم بصحتها بشكل دقيق وذلك لعدة اعتبارات – من وجهة نظرنا – منها أن عقلية المجتمع في تلك الفترة تنظر إلى الأوروبي بشكل عام على أنه مسيحي كافر، وبالتالي فإنهم يرفضون التعامل معه وأحرى أن يعطوه معلومات سكانية في غاية الدقة عن أفراد الأسرة، ويكفي من الأدلة على ذلك أن الإدارة الاستعمارية في السنغال، التي أشرفت على تمويل الرحلات الاستكشافية كانت في كثير من الأحيان تختار أفرادا من أصل سنغالي مسلمين حتى تأمن عليهم من بطش القبائل.

ومن جهة أخرى يبقى من الصعوبة بمكان، إعطاء إحصاء دقيق لسكان معظمهم – إن لم نقل كلهم تقريبا – بدو رحل لا يعرفون إلى الاستقرار والتقري سبيلا.

فإذا كانت عاصمة الإمارة (المحصر) ليست قارة، بل هي متنقلة حسب فصول السنة ومناطق الانتجاع والعشب، فما بالك بالعائلات الأخرى المكونة للنسيج

الاجتماعي المحلي، غير أنه مع هذا وذاك، يبقى هذا الإحصاء مصدرا يمكن أن يُركن إليه خصوصا في غياب البديل عنه للباحث.

بقي أن نشير إلى أن فئة حسان أقل ديمغرافيا من المجموعات الأخرى، وإذا كان الإحصاء السالف قد أعطاهم نسبة تزيد على 45% من مجموع سكان "الترارزة" مثلا، فربما باعتبار حسان والمجموعات التابعة لها، ويدعم ما ذهبنا إليه أن الإحصاء ذكر مجموعتين (حسان، والزوايا) و لم يذكر المجموعة الثالثة (الأتباع)، فربما أضاف لكل فئة أتباعها.

وتعود قلة حسان عدديا بالمقارنة مع المجموعات الأخرى، إلى دخولهم المستمر في حروب بينية، ودخولهم في صراعات بين الإمارات التي تقاسمت السلطة، بل ودخولهم في حروب مع الفرنسيين، فحرب أمير الترارزة محمد لحبيب مع الوالي الفرنسي على السنغال من أجل وضع أسس جديدة للتعامل في المنطقة، والتي استمرت أربع سنوات (1858-1854) فقد فيها محمد لحبيب خمس جيشه وكلهم من حملة السلاح (حسان).

2.1 الزوايا:

تطلق على الفئة المتخصصة في العلم والتعليم وهي المجموعة التي تدير عالم الغيب، فإذا كان حسان يسيطرون زمنيا ودنيويا، فإن الزوايا يسيطرون روحيا وأخرويا فهذه الفئة الأخيرة هي المنتجة للثقافة العامة.

ويمكن القول أن "الزوايا" تشكلوا من أصول مختلفة (صنهاجية، عربية، إفريقية) عبر مراحل الإعمار البشري للمنطقة، فانصهروا في أشكال تنظيمية اتخذت من الحضارة

العربية الإسلامية مرجعا ومن القبيلة شكلا تنظيميا مع تشبث الجميع بالانتماء إلى الأصول العربية.

ولا يهمنا في شيء صحة أو بطلان الادعاء بالانتماء إلى الأصول العربية، غير أن ما لفت انتباهنا وفصلنا شيئا ما فيه القول في دراسة سابقة ، هو السبب الذي جعل القبائل تجتهد في جعل أصولها عربية حتى ولو لم تكن كذلك .

يعتبر الزوايا أصحاب الحظ الأوفر من الأعمال الإنتاجية، فهم يهيمنون على التجارة والزراعة، وتربية الماشية، كما يمتلكون أعدادا كبيرة من الماشية وبذلك يعتبرون أكثر غنى من حسان الذين لا يعيرون كبير إهتمام النشاطات الاقتصادية .

ولا نمتلك أرقاما دقيقة عن أعداد "الزوايا" نتيجة إحجام المصادر عن ذكرها وعدم وجود إحصاءات سكانية في فترة ما قبل الاستعمار، فلا وجود لقائمة حصرية بأسماء القبائل الموجودة في كل منطقة، فبلأحرى الأرقام عن عدد السكان، فقد كانت حياة البداوة الظاعنة واستغناء أهل البلد عن بعضهم البعض في الأمور الجامعة وغياب الدولة بالمعنى الدقيق، كلها عوامل طبعت بنية المجتمع، فجعلته لا يعتني بما لا يدخل في صميم ضروریاته اليومية كالبنيات الإحصائية.

كما أن الطابع الفئوي للجباية، وطبيعة القيمين عليها في النظام الأميري، وطريقة الفئة الزاوية في جباية العاقلة لم تسمح هي الأخرى بوجود سجلات جبائية يمكن الاعتماد عليها في وضع تقديرات إحصائية لسكان المنطقة قبل الوجود الفرنسي.

وقد قدر جورج أبولي عدد سكان إمارة الترارزة في السنة السابقة للاحتلال الفرنسي ب 077. 00 نسمة، مثل الزوايا ومواليهم 22.000 بالغ، وحسان

ومواليهم 4.500 بالغ، والأتباع "ازناكة" 600 بالغ، في حين وصل عدد النساء والأطفال من مختلف الفئات 5.000 نسمة .

إن هذه التقديرات تعطينا صورة – ولو ضبابية – عن تعداد السكان بشكل عام فإمارة الترارزة تعتبر ثاني أكبر إمارة من ناحية الكم الديمغرافي بعد "لبراكنة"، وبالتالي فهي حالة وسط بين الإمارات الأربع من جهة عدد السكان، وإن كانت لم تقنعنا بشكل كامل معلومات "أبولي" على غرار سابقه "كاي" حول تعداد السكان، وإن كانت إحصاءات (جورج أبولي) جاءت متأخرة زمانيا عن سابقه "والمتأخر أتم نظرا" كما يقال.

إلا أنه أيضا لا يمكننا إغفال السياق التاريخي، فإحصاء "جورج أبولي" جاء في وقت كانت فيه الإدارة الفرنسية تلملم ما بقي من أوراقها في انتظار ساعة الصفر (1903) لتدق آخر مسمار في نعش النظام الأميري، وكان السكان المحليون والنظام الأميري نفسه على وعي بالنوايا الفرنسية، الرامية إلى معرفة المجال وساكنته، وعليه فإن دقة الإحصاء بشكل كامل أمر غير مسلم به.

ويستفيد الزوايا شأنهم في ذلك شأن حسان من الإتاوات التي تقدمها الفئات المغلوبة على أمرها، حيث يحصلون على بعض الإتاوات (هدايا)، مقابل الحماية الروحية والدينية وإن كانت هذه الإتاوات لها طابع طوعي في أغلب الأحيان .

ثانيا: أصحاب قاعدة الهرم الاجتماعي "الفئات التابعة":

ترجع أصول هذه الفئات كغيرها من المجتمع إلى أصول عربية وصنهاجية، غير أن ما يميزها أنه ليس لها كيان مستقل، فهي تدور في فلك هذه القبيلة أو تلك من فئة حسان أو الزوايا، وتستظل بظلهم مقابل مغرم سنوي (ضريبة الحماية)، ويلعب

"التابعون" دورا مهما في الحياة الاقتصادية من خلال النشاطات التقليدية (تربية الماشية، الزراعة..) وأهم شرائح هذه الفئة الاجتماعية اللحمة "أزناكة" ولمعلمين "الصناع التقليديون" وإيكاون "المطربون" والحراطين العبيد.

1) اللحمة "أزناكة":

إن منطق القوة الذي طبع البلاد أثناء تشكل المجتمع المحلي جعل الحياة للأقوى، والضعيف ليس له إلا التبعية في مؤخرة البنية الاجتماعية، وبما أن سمة الحروب كانت ظاهرة للعيان في مجتمع الأمس، فإن المنطق يقول إن هذه الحرب تفضي إلى منتصر ومهزوم، فالأول يملي شروطه من موقع القوة على الثاني المهزوم المغلوب على أمره، على هذا النحو تشكلت فئة "اللحمة، أزناكة" فهي قد جاءت نتيجة تعرض بعض القبائل للهزيمة على أيدي أخرى فأصبحت تابعة لها.

تشتغل هذه الفئة بالرعي وأحيانا بالزراعة، وإن كان النشاط الرعوي أكثر انتشارا في صفوفها بحكم طبيعة البلاد الصحراوية الملائمة للرعي أكثر منها للزراعة.

ومع مساهمتها في ديناميكية الاقتصاد، فقد يطلع بعض أفرادها بأدوار سياسية وعسكرية، إذ كثيرا ما يلجأ الأمراء في أوقات الأزمات إلى فئة التابعين بوصفها قوة احتياطية في الحروب الداخلية والخارجية .

2) الفنانون "إيكاون":

مساهمون في الثقافة الشعبية خصوصا ما يرتبط منها بالفن والموسيقى، تتشكل هذه الفئة من أسر محدودة العدد منغلقة في الغالب الأعم على نفسها، فلا يحترف هذه المهنة (الطرب) غيرهم، ويرتبطون بمجموعة حسان، يتغنون بأمجادهم وبطولاتهم في الحرب من خلال فن التهيدين ويحظون مقابل ذلك بالهدايا من طرف "حسان".

3) المعلمين "الصناع التقليديون":

المجموعة المشرفة على الصناعة، فعليهم الاعتماد في صناعة مستلزمات الحياة البدوية، وصناعتهم غالبا من الخشب والحديد والجلود، فمن الخشب يصنعون (السروج، والقداح، وركائز الخيام..) ومن الحديد يصنعون (السكاكين والخناجر والبنادق التقليدية..) وبالجملة هم المعول عليهم في إنتاج ما تحتاجه الأسرة في مجتمع بدوي تقليدي.

إن حاجة السكان إلى هذه الفئة واعتمادهم في حلهم وترحالهم على الأدوات التي تنتجها، لم يشفع لها بالرقي في سلم المجتمع، بل ظلت عناصرها في قاعدة الهرم الاجتماعي، و لم يحظوا بتقدير المجتمع لهم على شاكلة ما حصل لإخوانهم (الصناع التقليديون) في مغرب القرن التاسع عشر .

4) الحراطين:

هي الفئة التي كانت تحت ظل العبودية وتم عتقها من طرف أسيادها، إما عن طريق المكاتبة أو ابتغاء الأجر الأخروي، والفرق بين الحراطين والعبيد، هوأن الفئة الأخيرة لا تتملك ولا تتزوج إلا بإذن أسيادها فهي تابعة لملاكها حتى في أدق تفاصيل حياتها اليومية.

أما الحراطين فقد انفكوا من قيود العبودية، وصار عندهم نوع من الاستقلالية الذاتية عن أسيادهم السابقين، وإن عملوا معهم فبمقابل أجر معلوم حسب المناطق ونوع النشاط الذي يتعاطونه، ففي المناطق الزراعية في منطقة حوض النهر مثلا يعمل أفراد هذه الفئة في زراعة الأرض مقابل نسبة من المحصول (وهو ما يسميه

المشرع الإسلامي بـــ:"المزارعة") ، أما في مناطق الواحات فيعملون في سقي النخيل مقابل جزء من غلتها (وهو ما يكنيه الشارع بـــ:"المساقات") .

5) العبيد:

تتموقع هذه الفئة في الدرك الأسفل من الهرم الاجتماعي، وهي أقل عددا من سابقتها – "الحراطين" – بحكم مسار الانعتاق المتواصل، وترجع ظاهرة العبودية إلى تأثير تجارة الرقيق التي طبعت المنطقة الزنجية المتاخمة للحدود الجنوبية للبلد خلال القرن 17 – 18، فيما يرجع البعض أصولها إلى التجارة الصحراوية التي مكنت المجتمع من اقتناء الكثير منهم، وذلك بفعل حاجة الإنتاج الرعوي الماسة إلى رصيد بشري من هذه المجموعة.

ثالثا: البنية الاقتصادية

ارتبطت البنية الاقتصادية للمجتمع قبل الاحتلال الفرنسي مطلع القرن العشرين بالواقع البيئي الذي فرضته الجغرافيا وبالتقسيم الوظيفي الذي فرضه التاريخ، وسنقتصر هنا في حديثنا عن البنية الاقتصادية على الأنشطة الأساسية التي زاولها القوم ردحا من الزمن قبل أفول النظام الأميري على يد القوات الفرنسية، ولعل من أهم هذه الأنشطة التي سنتناولها بالدراسة (الرعي، والزراعة، والتجارة).

1. الثروة الحيوانية:

إن ندرة المياه السطحية وتذبذب الأمطار ووقوع البلاد على حافة مجابات الصحراء الكبرى وتأثير ذلك على المسطحات المائية أمور من بين أخرى جعلت حياة الرعي والبداوة الظاعنة سمة بارزة في حياة معظم السكان، إذا ما استثنينا المناطق الزراعية الواقعة على ضفة نهر السنغال في الجنوب أو واحات النخيل في الشمال.

ويخضع توزيع المواشي في البلاد إلى ملائمة الغطاء النباتي بحيث تكثر الإبل في الشمال لملائمة الظروف الصحروايةلتربيتها أما في الجنوب حيث وفرة الأشجار والنبات فإن السكان يركزون على تربية الأبقار والأغنام التي تحتاج إلى الماء والكلأ بشكل شبه يومي.

وبفضل الثروة الحيوانية الهائلة التي يمتلكها السكان – إذا ما قورنت بمجموع السكان القليل – حصل تراكم للثروة انعكس بدوره بشكل إيجابي على الأوضاع الاقتصادية للساكنة المحلية آنذاك.

ومن أجل تقريب الصورة عن عدد الثروة الحيوانية يكفي أن نورد ما ذكره Vincent إبان رحلته التي قادته إلى آدرار مرورا بالترارزة سنة 1860، من أن عدد المواشي التي وردت بئر غسرم لوحده تقدر بحوالي عشرة آلاف من الإبل، وخمسة عشر ألف من الغنم والكثير من البقر .

ولا تمدنا المصادر المحلية بإحصاءات عن عدد الثروة الحيوانية حتى نعرف مكانتها في اقتصاد القوم، إلا أننا نتوقع أنها كانت قبل الاحتلال الفرنسي أعدادها كثيرة ومؤشرات تزايدها في صعود شبه مستمر، وربما لعوامل الاستقرار السياسي النسبي وملائمة الظروف المناخية، وعائدات التجارة الخارجية، وغياب المجاعات وسنين القحط دخل في ذلك.

إن إهمال المدونات الوثائقية للتحديد الكمي لعدد المواشي يرتبط في الأساس – حسب اعتقادنا – بطبيعة المجتمع، فهذا الأخير يرفض أغلب أفراده إعطاء معلومات دقيقة عن عدد مواشيه، خوفا من القوى الضارة غير الملموسة "العين، الحسد" ولا

يتعلق الأمر بغياب التدوين الإحصائي لوحده وإنما كذلك بالأبعاد الرمزية والميتولوجية للمسألة .

2. النشاط الزراعي:

بحكم مناخ المنطقة الصحراوي فإن الزراعة ظلت عبر العصور نشاطا ثانويا و لم تحظ غالبية القوم باتخذاها وسيلة للعيش، وقد مثل البحث عن مصادر التموين بالمواد الغذائية التي تعتبر مكملة للموارد التي يوفرها الإنتاج الحيواني، مظهرا من مظاهر النشاط الزراعي لدى مجتمع ما قبل الاستعمار.

ويتعاطى المزارعون في الغالب نوعين من الزراعة (فيضية، وبعلية) ، فالأولى تعتمد على فيضانات النهر السنوية ومن أهم محاصليها الدخن (الزرع)، واللوبيا (آدلكان) والبطيخ (أشركاش) والفاصوليا... وهذا النوع من الزراعة أكثر من النوع الثاني نظرا لاتساع الرقعة الزراعية التي يتم فيها ووقوعها عادة على منابع الماء التي لا تنضب (النهر).

أما النوع الثاني فمرتبط بالأمطار مما يجعله ظرفيا، ويضيق مجاله كلما اتجهنا شمالا لقلة الأمطار في ذاك النطاق من البلاد.

وهناك زراعة الواحات التي تتم تحت النخيل وتوفر منتوجات هامة تتكون أساسا من الشعير والقمح والحناء، وقد ظل النخيل مصدرا اقتصاديا مهما وثروة يعتمد عليها السكان في معاشهم .

ويتركز النخيل في شمال البلاد ووسطها حيث المناخ الصحراوي الملائم لطبيعة النخيل، وقد قدر Vincent عدد النخيل في مدينة أطار لوحدها بستين ألف نخلة وهذا ما يعطينا صورة عن وفرة النخيل بالمنطقة، وإقبال الأهالي على غرسه

والاعتناء به، فهو إضافة إلى كونه يستخدم سعفه وجذوعه في بناء المساكن، تمثل ثماره (التمور) مادة مهمة لسكان الصحراء في مأكلهم، وقرى ضيوفهم.

3. التجارة:

لقد خول المنطقة موقعها الجغرافي الهام وانفتاحها على المجتمعات المجاورة الدخول في علاقات تجارية هامة، سواء كانت تلك العلاقات بينية – أي بين سكان الإمارات – أو كانت مع الأطراف الخارجية.

فعلى المستوى البيني كانت عملية التبادل التجاري تحصل عادة بين المنمين والمزارعين عن طريق المقايضة بحيث يحصل كل طرف على ما يريد وما تمليه عليه حاجته في محيط يطبعه نوع الحاجة إلى التكافل الاقتصادي، أما على مستوى التجارة الإقليمية فقد كانت البلاد ممرا للقوافل ذات المسافات الطويلة التي تربط عادة بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي فيما عرف بالتجارة الصحروية، ومن أهم المواد التي تتم مبادلتها بين هذه الأطراف وسكان المنطقة (الملح ، والذهب، وريش النعام، والعاج، والقماش..).

ومع الوجود الأوروبي على السواحل في القرن الخامس عشر بدأت التجارة الصحراوية تفقد حيويتها لتحل محلها التجارة الأطلسية، التي أدخلت بضائع جديدة (قماش، أسلحة، بارود، أواني..)، لم تكن معروفة لدى السكان وصارت في صميم حياتهم اليومية مقابل (الذهب، والعبيد)، وأنشأ الأوروبيون لهذا الغرض مراكز تجارية (آركين، بورتانديك) لتسهيل عملية التواصل مع السكان.

غير أن التجارة مع الأوروبيين ستشهد قفزة نوعية عندما تظهر الرغبة الجامحة لدى هذه الدول في الاستحواذ على تجارة الصمغ (العلك)، الذي بدأ يدخل في الصناعات الأولية الأوروبية (صناعة النسيج، صناعة الأدوية، الحلويات...).

ومن أجل الاستثمار بالمنطقة والسيطرة على مواردها خاضت الدول الأوروبية (إسبانيا، هولندا، بريطانيا، فرنسا) سلسلة حروب فيما بينها كان أهمها حروب الصمغ أسفرت في النهاية عن ترسيخ النفوذ الفرنسي وإبعاد الدول الأوروبية الأخرى من حلبة الصراع.

وقد أشرف النظام الأميري على تقنين التجارة مع الأوروبيين مستغلا التناقض الحاصل بين هذه الدول في تنويع علاقاته التجارية، وفرض المزيد من الإتاوات والضرائب مقابل الإشراف على تنظيم التجارة، ولإن كانت هذه الإتاوات قد رسخت النفوذ الأميري وعادت عليه بكثير من الفوائد فإنها ستعرف تراجعا ملحوظا خلال القرن التاسع عشر خصوصا بعد حرب الترارزة مع الوالي الفرنسي على السنغال "فيدرب" وهي الحرب التي توجت بتوقيع معاهدة 20/5/1858 التي تنص على إلغاء الامتيازات الثابتة التي كانت تدفعها سلطات الفرنسية للأمراء مقابل تأمين تجارة العلك وتعويض هذه الامتيازات بنسبة 3% فقط من كمية الصمغ المباعة .

وخلاصة القول أن العلاقة بين الفئات الاجتماعية فئة الأرستقراطية (حسان، والزوايا) من جهة والفئات التابعة من جهة أخرى هي في عمومها علاقة استغلال مفروض بواسطة العنف المادي (الذي يفرضه حسان) أو المعنوي (الذي يمارسه الزوايا(.

أما العلاقة بين قطبي الزعامة الاجتماعية (حسان، الزوايا) فقد كانت أكثر تعقيدا، فالحساني صاحب السلطة الزمنية والقوة العسكرية يشعر دوما بقوته المادية، غير أن هناك عاملا آخر ظل يكبح جماحه ويحد من سلطته على الزاوي وهو ما يعرف محليا بـــ: (تازبة) التي حافظت على نوع من توازن القوى بين الطرفين.

ومع هذا فقد ظلت الفئات الاجتماعية في حركة دائبة وهجرة مستمرة بمقتضى الظروف والملابسات التاريخية، بحيث يمكن أن نجد قبائل تتحول من حملة السلاح (حسان)، إلى حملة ألواح (الزوايا)، وهو ما يسمى بالتوبة، وأحيانا نجد القبيلة تنقسم إلى حسان وزوايا، وقبائل تحمل السلاح بعد أن كانت زاوية أو غارمة .

لقد وجدت في البلاد ثروة حيوانية كبيرة خلال الفترة السابقة على الاستعمار الفرنسي المباشر، وعليها ارتكز قوام الناس المادي سواء من حيث المعاش أو المسكن أو النقل، كما شكلت لها أداة ادخار وميدان الاستثمار الأساسي الذي تنصب فيه في نهاية المطاف معظم الأنشطة الإنتاجية الأخرى.

وإذا كان وجود نوع من الاستقرار السياسي – النسبي – ومدد مهم من اليد العاملة قد شجعا التوسع الزراعي، فإن المردودية ظلت في عمومها محدودة بسبب بدائية وسائل الاستغلال (الفأس، المنجل) وتذبذبات الأمطار، وعدم وجود منشآت (سدود) للتحكم في المياه.

أما التجارة مع الأطراف الخارجية – الأوروبيين خصوصا – فإنها لم تؤدي إلى ازدهار الاقتصاد التقليدي المحلي وإنما كانت لها انعكاسات سلبية بصفة عامة على هذا الأخير، فالمواد التي يقدمها الأوروبيون جعلت السكان يرتبطون بها وأصبحت بالتالي ضرورة لا غنى عنها في حياتهم، وعليه فإن المنمي والمزارع أصبحا مرغمين

على بيع جزء من ثروتهما من أجل إقتناء هذه المواد بدل أن كانت الحياة عندهم تعتمد على ما تنتجه البيئة المحلية.

و لم تقتصر التجارة مع الأوروبيين على تبعية الاقتصاد لهم بل ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما تم ربط السلطة التقليدية بالسلطة الاستعمارية مما كان له الانعكاس السلبي على استمرارية النظام الأميري.

قائمة المصادر والمراجع:

محمد المختار ولد السعد، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين (1703-1860) معهد الدراسات الإفريقية الرباط 2002.

محمد المختار سيدي محمد، المجتمع والسلطة في موريتانيا (1961-1978) "الرحيل إلى الدولة"، كتاب قيد النشر نسخة بحوزتنا أمدنا بها المؤلف.

- محمد الأمين بن سيد أحمد: السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة خلال القرن التاسع عشر، مطبعة المنار، انواكشوط 2003.

- - محمدو بن محمدن: الرحالة الفرنسيون ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط العدد الثاني 1990.

المختار بن حامد: موسوعة تاريخ موريتانيا، جزء الثاني، الجزء الثقافي.

- دي شاسيه: موريتانيا من 1900 – 1975 ترجمة محمد بن بوعليبة الغراب، منشورات دار النشر جسور، نواكشوط 2013.

- محمدو بن محمدن، المجتمع البيضاني فيم القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2001.

- جمال المختار غدور: العلاقات الموريتانية – المغاربية (1956-1978) بحيث لنيل شهادة الماستر في التاريخ جامعة ابن طفيل المغرب 2008.

- محمد الراضي بن صدفن: السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (1900-1960) المطبعة الوطنية 1992.

- محمد المختار ولد السعد ويحي ولد البراء: ميكانيزمات البنى القبيلة بين الثبات والتغيير من خلال المسألة العاقلة، ضمن مصادر دراسات التاريخ الموريتاني الكتاب الأول 1993.

- سيدي أحمد ولد أحمد سالم وآخرون: ديوان الشعر الشعبي، تقديم وتعليق المطبعة الجديدة، نواكشوط، 1996.

- سالك ولد محمد المصطفى: سدوم ولد انجرتو، مجلة الموكب الثقافي، اللجنة الوطنية للثقافة والعلوم، نواكشوط، العدد التاسع 1997.
- أحمد توفيق المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912)، منشورات كلية الآداب الرباط، الطبعة الثانية 1983.
- محمد مكرم منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت (دت) الطبعة الأولى، الجزء الاول.
- أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة (د،ت) الجزء الاول.
- محمد عبد الرؤوف المناوي: التوفيق على مهمات التعاريف تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.
- سريدي نور الدين، مساهمة في دراسة تاريخ موريتانيا، رسالة لنيل شهادة الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1995.

المراجع الأجنبية:

-Constant Hames ; ''la société Maure, ou le système des castes de l'inde'' , cahier international de sociologie, vol. XI,XI. 1969.

- Rachid ould Mohamed, contribution a l,histoire de la Mauritanie statut et conditions de vies dans la société Maures précoloniale mémoire de maitrise Université de Nouakchott 1988.

- Vincent (H) voyage d,exploration dans l, ADRAR (Sahara occidental) Revue Algérienne et coloniale 3eme série n 4 octobre 1860